



موسوعة المملكة العربية السعودية
Encyclopedia of Saudi Arabia

المجلد الرابع عشر

مِنَاطِقُ حَائِكٍ



ح مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٢٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مجموعة مؤلفين
موسوعة المملكة العربية السعودية. /منطقة حائل/ مجموعة مؤلفين.-
الرياض، ١٤٢٨هـ
٢٠ مج.
ردمك: ٨-٦٣-٧٠٨-٧٧-٥-٩٧٨-٩٩٦٠ (مجموعة)
٥-٧٧-٧٠٨-٧٧-٥-٩٧٨-٩٩٦٠ (ج ١٤)

١- السعودية - موسوعات
ديوي ٩٥٣،١٠٠٣
أ. العنوان
١٤٢٨/٧٩٩٩

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٧٩٩٩
ردمك: ٨-٦٣-٧٠٨-٧٧-٥-٩٧٨-٩٩٦٠ (مجموعة)
٥-٧٧-٧٠٨-٧٧-٥-٩٧٨-٩٩٦٠ (ج ١٤)

حقوق النشر والتوزيع محفوظة لمكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض
المملكة العربية السعودية
ص ب ٨٦٤٨٦ الرياض ١١٦٢٢
هاتف: ٩٦٦١٤٩١٩٢٦٥ + فاكس: ٩٦٦١٤٩١٩٣٣٧ +
الموقع الإلكتروني: www.kapl.org.sa



جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة نشر أي جزء من هذا المجلد، أو تخزينه أو تضمينه في جهاز للاسترجاع، أو نقله بأي صورة أو وسيلة، دون موافقة مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





التطور التاريخي

رئيس اللجنة العلمية

أ. د. محمد بن سليمان الخضيرى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المستكتبون

د. هتون بنت أجواد الفاسى

أستاذة تاريخ المرأة المساعد بجامعة الملك سعود

د. عبدالرحمن بن مديرس المديرى

أستاذ التاريخ المساعد بجامعة الملك سعود

د. عبدالله بن محمد المطوع

أستاذ التاريخ الحديث المشارك بجامعة الملك سعود

التحكيم العلمي

أ. د. عمر بن صالح العُمري

أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أ. د. عبدالله بن محمد السيف

أستاذ التاريخ بجامعة الملك سعود

د. حميد بن إبراهيم المزروع

أستاذ علم الآثار القديمة المشارك بجامعة الملك سعود

الآثار والمواقع التاريخية

رئيس اللجنة العلمية

أ. د. عبدالعزيز بن سعود الغزى

أستاذ علم الآثار القديمة بجامعة الملك سعود

المستكتب

أ. د. سعيد بن فايز السعيد

أستاذ اللغات والحضارات القديمة بجامعة الملك سعود

التحكيم العلمي

د. عدنان بن محمد الحارثى الشريف

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المشارك بجامعة أم القرى

د. سامر بن أحمد سحله

أستاذ آثار الشرق الأدنى المساعد بجامعة الملك سعود

الباب الثاني

التطور التاريخي



الفصل الأول

عصر ما قبل الإسلام

- أولاً عصور ما قبل التاريخ
- ثانياً عصور الممالك القديمة
- ثالثاً شخصيات وأحداث في تاريخ المنطقة
- رابعاً المظاهر الحضارية

إعداد

الدكتورة هتون بنت أجواد الفاسي

أستاذة تاريخ المرأة المساعد





وادي الأديرع

وترفده أودية صغيرة من الجنوب، وتجتمع كلها على مقربة من شرق مدينة حائل، ثم يتجه الوادي نحو الشمال الشرقي حتى تواجهه رمال النفود فتصرفه نحو الجنوب الشرقي، حيث تلتقي بسيول شرقي جبل سلمى، وتقضي بعد اجتماعها على مقربة من بقعاء، حيث تحجز هناك^(٨).

وعرفت المنطقة - أيضاً - بجبلي أجا وسلمى، ويقع الجبلان على طرفي مدينة حائل وواديها، فأجا إلى غربها مباشرة، ويمتد من الشمال إلى الجنوب مسافة ١٠٠ كم تقريباً، وعرضه بين ٢٠ و٣٥ كم، ومن أشهر قراه: جوّفي قمته، وعقدة في وسطه، وفيه كثير من القرى والعيون والآبار والوديان التي ينمو على جوانبها النخيل. وتقع سلسلة جبال سلمى إلى الشرق من جبال أجا على بعد ٥٠ كم، وتمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي مسافة نحو ٥١ كم، وعرضها يراوح بين ١٠ و١٥ كم، ويوجد فيها كثير من القرى مثل: فيد، وطابة، وجانين، وسميراء^(٩).

وردت لفظة حائل بعدد من المعاني، فهي تعني الناقة التي تحمل عامها ذاك، وكذلك تعني الشيء المتغير اللون^(١). وجاءت بمعنى الناقة التي توقفت عن الحمل^(٢)، أو الأنثى من مواليد الإبل ساعة ولادتها. كما وردت بمعنى الحاجز، أو الحاجب لكثرة الحواجز الطبيعية في المنطقة التي تحول بين النظر ورؤية ما وراء تلك الحواجز^(٣). وسميت منطقة الدراسة بحائل أيضاً؛ لأنها حالت دون بلاد الشام ودومة الجندل، وبين القصيم والرياض^(٤). وقيل إن التسمية لوجودها على ضفة وادي (الأديرع) الغربية، فعندما يسيل هذا الوادي يحول بين سكان الجبلين، وكانت التسمية تطلق في الأصل على الوادي^(٥).

ويظهر أن التفسير الأقرب إلى الصحة هو أن حائل تعني الحاجز، أو الحاجب. وتسمية حائل قديمة تعود إلى ما قبل الإسلام، وأقدم ذكر لها جاء في قصيدة لامرئ القيس ١٣٠ - ٨٠ ق. هـ. يقول فيها:

أبت أجا أن تسلم العام جارها

فمن شاء فلينهض لها من مقاتل

تبيت لبوني بالقرية أمانا

وأسرحها غباً بأكتاف حائل

بنو نعل جيرانها وحماها

وتمنع من رماة سعد ونائل^(٦)

ولكنها لم تكن تسمية للقرية الرئيسة في المنطقة فقد اشتملت على الوادي وعلى قرية حائل. ووفق الجاسر فإن إطلاق اسم حائل على المدينة لم يعرف إلا منذ قرنين من الزمان. وكانت الشهرة لبلدة قفّار الواقعة جنوب قرية حائل^(٧). أما عن الوادي فيذكر أن أعلاه يدعى الأديرع، وتمتد فروعه من جبل حصن جنوب أجا، ثم تجتمع سيول أجا فيه، وتتحد شرقاً،

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، د. ط.، (بيروت: دار صادر، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م)، ج٢، ٢١٠.

(٢) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ط٢، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م)، ١٢٧٩.

(٣) عبدالرحمن السبيت، «منطقة حائل»، مجلة الدارة، دار الملك عبدالعزيز، ع٣، (الرياض: ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م)، ٨٣.

(٤) سليمان الدخيل، «جزيرة العرب»، مجلة لغة العرب، ع٥، (بغداد: ١٣٣١ هـ / ١٩١٣ م)، ٢٢٧.

(٥) فهد العلي العريضي، حائل، سلسلة هذه بلادنا، ط١، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٢ هـ)، ١٤.

(٦) الحموي، ياقوت. معجم البلدان، مرجع سابق، ج٢، ٢١٠.

(٧) حمد الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: شمال المملكة، القسم الأول، (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٩٧٧ م)، ٣٨٢، ٣٨٣.

(٨) المرجع السابق، ٣٨٢.

(٩) العريضي، فهد العلي. حائل، سلسلة هذه بلادنا، مرجع سابق، ٦٣ - ٦٧. ولمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الأول، (الخصائص الجغرافية): الفصل الثاني.



جبال أجا

هناك أيضاً ويسمى بالحاضنة لما كانت العوجاء حاضنة سلمى^(٢). وقد استمر أثر هذه الأسطورة حاضراً في شعر طيئ وأمثالها، وفيما بعد في رواية تاريخها، ومنها قول الشاعر:

ولو جبلي طي رميت بفرقة

لجاء أجا سلمى إليك مسلماً^(٣)

أما فيما يخص السكن فقد أشارت المصادر إلى سكن طيئ في الجبلين بعد هجرتها من اليمن، وعلى الرغم مما عرف عن العرب من التنقل والترحال، إلا أن طيئ أقامت في الجبلين، واتخذتهما منزلاً لها حتى الآن^(٤).

وتُجمع المصادر على أن أصل طيئ من العرب اليمانية، وموطنهم همدان من جنوب الجزيرة، أما نسبه فقد اختلف حوله، فقيل إن اسمه: جُلهمَة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح^(٥)، أو طيئ بن أدد بن زيد كهلان بن سبأ بن حمير^(٦).

ووفق هذه الروايات فإنه سمي بذلك؛ لأنه أول من طوى المنازل أو المناهل، في حين يذكر أن أول من طوى بئراً هو زيد الخيل بن مهلهل بن يزيد بن طيئ، وأم طيئ هي دلة بنت منجشان بن كلة بن زدمان بن حمير، يقال إن أمها ولدتها على أطمه يقال لها مذحج، فسميت دلة مذحج فولدها كلهم يقال لهم بنو مذحج^(٧). وفي طيئ عدد من البطون، منها: جديلة، وبحتر بن عتود، وبنو ثعلب، وبنو نبهان، وبنو هنيء، إليها ينسب البحثري والثعلبي والنبهاني والهنائي^(٨). ويذكر ابن

وقد وردت في سبب تسمية أجا وسلمى قصص وأساطير، تشبه قصة إساف ونائلة اللذين عشقا بعضهما عند الكعبة فمسخا بعد تماسهما إلى صخرتين وضعتا عند الصفا والمروة وما لبثتا أن عُبدتا^(١). ومن تلك القصص التي وردت عن أجا وسلمى ما قاله أبو علي القالي فيما نقله عن رجاله، أن سلمى كانت امرأة متزوجة ولها خل يقال له أجا وأن الوسيطة بينهما تدعى (العوجاء)، فهرب أجا بهما فلحقه زوج سلمى فقتل أجا وصلبه على ذلك الجبل فسمي به، وفعل كذلك بسلمى على الجبل الآخر فسمي بها، والعوجاء جبل هنالك أيضاً صلب عليه المرأة الأخرى فسمي بها. في حين أن قصة محمد بن سهل الكاتب تجعلهما عاشقين دون أن تكون هناك خيانة زوجية، فيقول: «كان أجا بن عبدالحى يعشق سلمى بنت حام من العماليق، وكانت العوجاء حاضنة سلمى والرسول بينهما، فهرب بهما إلى هذه الجبال فسميت بهم، والعوجاء جبل

(١) محمد بن إسحاق الفاكهي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبدالمك بن دهيش، (مكة المكرمة، مكتبة النهضة الحديثة، ١٩٨٦ م)، ج٥، ١٦٤؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، مرجع سابق، ج١: إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، (بيروت: مكتبة المعارف)، ج٢، ١٨٥.

(٢) عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي البكري، معجم ما استمع من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، ط٣، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣ هـ)، ج١، ١١٠؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، مرجع سابق، ج١، ٩٤.

(٣) علي بن بسام الشنتريني، الأخبارية في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار الثقافة، ١٩٩٧ م)، ج٣، ٤٣٦.

(٤) البكري، عبدالله بن عبدالعزيز، معجم ما استمع من مرجع سابق، ج١، ١٠٩؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، مرجع سابق، ج١، ٩٤ - ٩٩؛ وفاء فهمي السنديوني، شعر طيئ وأخبارها في الجاهلية والإسلام، ط١، (الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م)، ج١، ٤٢.

(٥) عبدالكريم بن محمد السمعاني، الأتساب، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٨ م)، ٨٨٠؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، مرجع سابق، ج٤، ٩٩ - ٩٩.

(٦) جمال الدين أبو الفضل ابن منظور، لسان العرب، (القاهرة: دار المعارف)، ج١، ١١٦.

(٧) عبدالله بن الحسين ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: عمر بن غرامة العمري، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥ م)، ج١٩، ٥٢٢.

(٨) يوسف بن عبدالله النمري القرظي، الأتساب على قبائل الرواة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥ هـ)، ج١، ١١٩.

مشاركتي إياك في هذا المكان فأكون لك مؤنساً وخلاً. فقال الشيخ: إن لي في ذلك رأياً فأقم فإن المكان واسع، والشجر يانع، والماء طاهر، والكلاً غامر. فأقام معه طَيِّئاً يبأله وولده في الجبلين فلم يلبث الشيخ والعجوز إلا قليلاً حتى هلكا وخلص المكان لطَيِّئاً، فولده به إلى هذه الغاية^(٢).

ورواية أخرى تدور حول نزول أفراد أو أعيان من جديس بجبليها قبل أن تنزلها طَيِّئاً بعد هلاك جديس على يد حسان تبع، فقيل إن الأسود بن عفار أو غفار هرب إلى جبلي طَيِّئاً فأقام فيهما. وفي ذلك الحين كانت طَيِّئاً لا تزال في موطنها بجنوب الجزيرة العربية مثل وادي طريب^(٣) ووادي الجوف^(٤) وغيرهما^(٥). ثم تتفق الرواية بعض الشيء مع رواية ابن الكلبي، إلا أن ابن الكلبي يشير إلى طَيِّئاً بعد سيل العرم، في حين أن ابن الأثير يشير إليهم وهم لا يزالون في همدان من اليمن. وتخلص القصة إلى وصول طَيِّئاً إلى الجبلين ولكنهم عندما وجدوا الأسود بن عفار قتلوه. ونجد أن القصتين تشيران إلى وجود سكان في الجبلين، سبقوا الطائيين، وإن ربطناه بقوم خارقين للطبيعة في حجمهم، ووصلناهم بمنطقة صحار بعمان في رواية الكلبي، أو بقوم جديس وهم من العرب البائدة في رواية ابن الأثير. هذا مع العلم أن هناك قصة تالفة تنسب إلى هشام بن محمد الكلبي لا تجعل في منطقة أجا وسلمى أحداً من البشر، وتنسب سكنى المكان إلى الجن. ثم يذكر وصول بقايا جديس بعد استقرار الطائيين فيها ودخولهم في حرب قصيرة معهم انتصر عليهم الطائيون بعدها حتى خلصت لهم^(٦).

حزم أنهم خرجوا من اليمن مع بني أسد حتى نزلوا أجا وسلمى، ونزل بنو أسد ما بينهما وبين العراق^(١). ويرجح من أدلة تاريخية أخرى أن استقرار طَيِّئاً في الجبلين كان في القرن الأول أو الثاني الميلادي.

وقد جاء في قصة نزول طَيِّئاً ووصولهم إلى الجبلين عدد من الروايات منها رواية ابن الكلبي التي تقول إنه لما تفرق بنو سبأ أيام سيل العرم سار طَيِّئاً وبنو عمومته نحو تهامة وكانوا فيما بينها وبين اليمن، ثم وقع بين طَيِّئاً وعمومته خلاف ففارقهم وسار نحو الحجاز بأهله وماله وتتبع مواقع القطر، وأوغل في أرض الحجاز، وكان له بغير يشرد في كل سنة عن إبله ويغيب ثلاثة أشهر ثم يعود إليه وقد عبل وسمن وأثار الخضرة بادية في شذقيه، فقال لابنه عمرو: تفقد يا بني هذا البعير فإذا شرد فاتبع أثره، حتى تنظر إلى أين ينتهي. فلما كانت أيام الربيع وشرد البعير تبعه على نافة له فلم يزل يقفو أثره حتى صار إلى جبل طَيِّئاً فأقام هنالك ونظر عمرو إلى بلاد واسعة كثيرة المياه والشجر والنخيل والريف فرجع إلى أبيه وأخبره بذلك؛ فسار طَيِّئاً يبأله وولده حتى نزل الجبلين فرأهما أرضاً لها شأن، ورأى فيها شيخاً عظيماً جسيماً مديد القامة على خلق العاديين ومعه امرأة على خلقه يقال لها سلمى وهي امرأته وقد اقتصما الجبلين بينهما مناصفة، فأجا في أحد النصفين وسلمى في الآخر، فسألها طَيِّئاً عن أمرهما، فقال الشيخ: نحن من بقايا صحار غنينا بهذين الجبلين عصراً بعد عصر، أفنانا كرا الليل والنهار. فقال له طَيِّئاً: هل لك في

(١) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، (بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، ١٩٧٩م)، ج١، ص١١٠.

(٢) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، مرجع سابق، ج١، ص٩٤-٩٩.

(٣) طريب: واد في بلاد قحطان من بلاد عسير؛ الجاسر، حمد. المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، مرجع سابق، ج٢، ص٧٤٨.

(٤) وادي الجوف: عرف قديماً بجوف الخنقة، وفي الوقت الحاضر بجوف آل مَعْمَر، ويقع شمال محافظة سراة عبيدة في أعلى وادي طريب ويصب فيه، ويسكنه آل معمر من عبيدة؛ انظر: علي إبراهيم ناصر الحربي، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، منطقة عسير. د.ط، (أبها: ١٤١٧هـ)، ج١، ص٤١٥، ٤١٦.

(٥) عز الدين علي بن محمد الشيباني بن الأثير، الكامل في التاريخ، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٣م)، ج١، ص٢٧٣.

(٦) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، مرجع سابق، ج١، ص٩٧-٩٩.

أن عاصمة المنطقة القديمة هي بلدة قفار جنوب حائل^(٩).

أولاً - عصور ما قبل التاريخ:

يعود تاريخ منطقة حائل إلى فترة العصور الحجرية، وخصوصاً المنطقة المحيطة بموقع جبة أكبر مواقع الرسوم الصخرية في المملكة العربية السعودية^(*). وقد ترك سكان المنطقة آثارهم وخطوطهم على صفحات جبل جبة وصخوره الممتدة إلى الأعلى معطية فكرة عن الحياة الفطرية التي كانت سائدة في المنطقة من نحو ٧٠٠٠ - ٤٥٠٠ ق.م. تقريباً. وتغطي الرسوم الصخرية والكتابات الواجيات في مراحلها التاريخية المختلفة بدءاً برسوم صخرية آدمية وحيوانية ضخمة، ثم أصغر فأصغر حتى تحولت في أواخر العصر البرونزي والحديدي (ما بين ١٥٠٠ و ٥٠٠ ق.م) إلى رسوم رمزية وكتابات مثلت كتابات ما يعرف بالثمودية الجزء الأكبر منها^(١٠).

ثانياً - عصور الممالك القديمة:

تبدأ هذه الفترة منذ الألف الأول قبل الميلاد ويعتقد أن صلة حائل كانت وثيقة بالجوف ومدينتها العامرة أدوماتو (دومة الجندل الحالية)، وأنها كانت خط دفاع خلفياً لسكان أدوماتو ينسحبون إليها عندما تهاجمهم قبائل أو قوى الشمال العظمى مثل: الآشورية والبابلية. ويرجع وينيت وريد أن تكون بلاد حائل هي أرض شعب نبياتي الوارد ذكرهم في الحوليات الآشورية التي لجأ إليها الأدوماتيون بقيادة يوتع بن حزائيل إثر إحدى

وكما نرى فهذه روايات يصعب ترجيح إحداها على الأخرى؛ لإغراقها في الأسطورة، لكن يمكن الخروج منها بأن طيئاً خرجت من اليمن واستقرت في منطقة الجبلين الخصبة، وقد سبقها إليها قوم أو أقوام، وهذا لا شك فيه عندما تكون منطقة خصبة خضراء في وسط الجزيرة العربية وبقارها.

وقد أطلق ابن الكلبي على هذا الوادي اسم حائل، ولم تمض فترة من الزمن حتى شاع ذكرها على بلاد طيئ جميعها^(١١). ويشير إلى ذلك الهمداني عند حديثه عن الريان أحد قمم جبال أجا، فيذكر أن في أسفلها أدنى مياه حائل^(١٢). ومن الواضح أن حائل لم يكن لها شأن يذكر قبل نزول الطائيين بواديها، واستحوذهم على السهل والجبل، حيث ارتبط اسمها بأمجادهم وأيامهم، وإن غلب عليها اسم الجبلين (أجا وسلمى)، أو جبلي طيئ^(١٣).

لم تكن حائل هي الموطن الوحيد للبطون الطائية بطبيعة الحال، بل كانت لهم مواطن أخرى خلال العصر الجاهلي أقدم منها، مثل: فيد^(١٤)، وسميراء^(١٥)، والأجفر^(١٦)، التي نزلوها قبل غيرها، والتي حظيت بالشهرة منذ العصر الجاهلي، ومن مدن منطقة حائل فدك^(١٧). وتضم حائل ضاحية السويطة، وهي أسفل حائل، ويعتقد أنها أصل المدينة، وفيها بقايا آبار وآثار، وقد سُكنت قرية حائل في العصور الحديثة من قبل أمراء شمر، فاشتهرت، وشاع اسمها، وغلب على المدينة وسقطت كلمة قرية^(١٨)، في حين يرى الجاسر

(١) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، صفة جزيرة العرب، (صنعاء: مكتبة الإرشاد، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م)، ٢٤٥؛ طه أبو سديرة، حائل في صدر الإسلام، ط١، (حائل: دار الأندلس، ١٤١٦ هـ). ١٨.

(٢) الهمداني، الحسن بن أحمد. صفة جزيرة العرب، مرجع سابق، ٢٤٥.

(٣) المرجع السابق، ٣٧٤.

(٤) فيد: قلعة ومدينة لها سور وحصن منيع، وأهلها من بني طيئ وغيرهم، وتقع في سفح جبلهم المعروف بسملى. أحمد بن عمر بن رسته، الأضلاع النفسية، (لندن: برايل ١٨٩١ م)، ٣١١، ٣١٢؛ محمد بن محمد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، (مصر: بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت)، ج١، ٣٨٠؛ محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط١، (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤ م)، ٤٤٣؛ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٦ م)، ج٥، وسيكون عنها حديث مفصل لاحقاً.

(٥) سميراء: من المنازل المهمة على طريق الحج من الكوفة إلى مكة. وتقع بعد توز للمتجه إلى مكة جنوب شرق جبل سلمى، وسميت بهذا الاسم لوجود جبال وأكام سود حولها. الحموي، ياقوت. معجم البلدان، مرجع سابق، ج٣، ٢٥٥، وسيرد تفصيل عنها لاحقاً.

(٦) الأجفر: جمع جفر وهو البئر الواسعة لم تطو موضع بين فيد والخزيمة، بينه وبين فيد ستة وثلاثون فرسخاً نحو مكة. الحموي، ياقوت. معجم البلدان، مرجع سابق، ج١، ١٠٢.

(٧) المرجع السابق، ج٤، ٢٣٨ - ٢٤٠؛ مجد الدين محمد بن يعقوب الضيرزبادي، المغامرات المطلية في معالم طابية، ط١، (المدينة المنورة: مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م)، ج٣، ٩٩٤ - ١٠٠٠، وسيرد تفصيل عنها وعن غيرها لاحقاً.

(٨) محمد سعد الشويهر، فصول من تاريخ مدن المملكة العربية السعودية، حائل، (الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر، ١٩٨٤ م)، ٤٢.

(٩) الجاسر، حمد. المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، القسم الأول، مرجع سابق، ٣٩١.

(١٠) عبد الله السعود، ومجيد خان، وعبد الله الهدلق، تقرير عن مسح مواقع جبة بمنطقة حائل، الموسم الأول ١٤٢٢ هـ، أطلال، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض، ٢٠٠٥ م)، ١٣٤، ١٣٥.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الثالث، (الأثار والمواقع التاريخية)، الفصل الرابع.



نقوش ثمودية وطبعت أيد في جانين

الحملة الحربية التي شنها الآشوريون بقيادة آشوربانيبال ٦٦٨ - ٦٣٣ ق.م. على عرب أدوماتو^(١) ويرجح أن تكون موطن الأنباط الأول^(٢).

وقد وقعت أجزاء من منطقة حائل ضمن النفوذ البابلي الحديث عندما استقر الملك نابونيد في تيماء لمدة عشر سنوات بين عامي ٥٥٢ و ٥٤٣ ق.م. وقام خلالها بغزو عدد من المدن التي ذكرها في حولياته التي عثر عليها في حرّان ونشرت عام ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م^(٣). وتشمل المدن التي ضمها يثرب وخبير وفدك والحويط التي كانت تعرف قديماً باسم يديع (وردت هكذا في النص البابلي)^(٤). ويرجح الجاسر والأنصاري أنها المدينة التي وصلها نابونيد الملك البابلي في غزوه لمدن شمال الجزيرة^(٥). وتركت القبائل المستقرة والمارة في أراضي المنطقة آثاراً متنوعة، أهمها وأبقاها الكتابات المحفورة على صخور الجبال المحيطة بحائل، وكتابات البادية التي يطلق عليها اسم الكتابات الثمودية التي تنتشر في منطقة جبة، وتتركز بكثرة في جانين التي تقع على بعد ٧٠ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة حائل، ثم جبل ياطب (شرق مدينة حائل)، وكذلك مواقع المليحية ٣٥ كم شرقي مدينة حائل، وصبحة ٥٢ كم شمال شرق مدينة حائل، الحويط، وجبل القاعد ٣٥ كم شمال مدينة حائل، وطوال النفود ٤٥ كم شمال مدينة حائل، وسلسلة جبال الخطة، والغوطة ١٠ كم شرق جبة، والشملي (جنوب غرب حائل)، والحناكية وغيرها^(٦).

ويرى أحد الباحثين - بناء على الكتابات الموجودة في المنطقة - أن منطقة حائل كانت مركزاً مهماً ومفترقاً للطرق التجارية التي تربط شرق الجزيرة ووسطها بشمالها، ومن ثمّ بالمواقع الحضارية في بلاد الشام والعراق، وأن ازدهار هذا الطريق تم بين القرنين الخامس والأول قبل الميلاد، ثم تغير حين أخذت الجوف مكانة حائل تحت النفوذ النبطي؛ ما أدى إلى فراغ سكاني في الفترة ما بين القرنين الأول والثاني الميلاديين^(٧)، ما لبثت قبيلة طيّب أن ملأته منذ ذلك التاريخ، ومنذ ذلك الوقت بدأ ذكر طيّب بصوره المختلفة يرد في المصادر التاريخية^(٨).

وتعد منطقة حائل من أغنى مناطق شبه الجزيرة العربية بالرسومات الصخرية، وقد بلغ عدد النصوص والرسومات المكتشفة في المنطقة خلال موسم واحد فقط حسب إحصائية إدارة الآثار والمتاحف عام ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م لموقع جبة نحو ١٧٠٠٠

(١) Winnett, F.V. Reed.W.L. Ancient Records from North Arabia. (With contributions by J.T. Milik & J. Starcky). Toronto: University of Toronto Press. 1970. p. 100.

(٢) Al-Theeb, S. The Native Land of the Nabataeans. New Arabian Studies. 4. 1997. pp. 237- 38.

(٣) انظر النقش في Op.Cit. Gadd. 1958. pp. 57,58.

(٤) انظر: رضا جواد الهاشمي، «العرب في ضوء المصادر المسمارية»، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، (بغداد، ١٩٧٨ م)، ٦٦٣؛ ولمزيد من المعلومات انظر: سعيد فايز السعيد، «حملة الملك البابلي على شمال غرب الجزيرة العربية»، بحوث تاريخية، الجمعية التاريخية السعودية، (الرياض، ٢٠٠٠ م)، ٢٩ وما بعدها.

(٥) الجاسر، حمد. المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، القسم الأول، مرجع سابق، ٣٨٢؛ عبدالرحمن الطيب الأنصاري، وفرج الله أحمد يوسف، حائل ديرة حاتم، سلسلة قرى ظاهرة على طريق البخور (٥)، (الرياض: دار القوافل للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥ م)، ٥٤.

(٦) عبدالرحمن كباوي، وعبدالرحمن الزهراني، ومجدد خان، وعبدالرحيم المبارك، وإبراهيم السبهان، «حصر وتسجيل الرسوم والنقوش الصخرية: الموسم الثالث سنة ١٤٠٦ هـ، أطلال، وكالة الآثار والمتاحف، ١١، (الرياض، ١٩٨٨ م)، ٧٦ - ٩٠.

(٧) سليمان الذيب، «نقوش عربية شمالية من منطقة حائل: المملكة العربية السعودية»، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٧، (القاهرة، ١٩٩٧ م)، ٣.

(٨) انظر القسم الخاص بطيّب فيما يلي: الحموي، ياقوت. معجم البلدان، مرجع سابق، ج١.

العربية الأخرى. فعرفوا ب طيعا وطايايا لدى عبرانيين التلمود، وباسم Tayoye ، Tayaye ، Sarakoye لدى برديسان المؤرخ السرياني نحو ٢٠٠ م. واستخدم الفرس لفظة تاجك للعرب، واستخدم الأرمن تجك، والصينيون لفظة تاشي^(٤)، وكان السريان يطلقون لفظ السراكين على القبائل العربية في الصحراء السورية وإلى الغرب منها، في حين يطلقون اسم طاياي على العرب في الجزء الشرقي من الصحراء السورية العربية والمجاورة للفرس^(٥) واستمر هذا اللقب مستخدماً في النصوص السريانية حتى القرن السادس، حيث ظهرت الإشارة إلى العرب بطايايا لدى شمعون الأرشامسي الذي سجل قصة أخذود نجران في رسائله حول شهداء الأخدود^(٦). كما عرف العرب بقریب من هذا الاشتقاق طايينوي Tayeni. Tayenoi لدى بعض المؤرخين البيزنطيين، مثل: يوزيبوس توفي ٣٤٠ م. ويحدد روبرت هويلاند زمن استخدام هذه التسمية (طاياي) بالقرن الثالث الميلادي، ثم تحولت إلى اسم جامع دال على العرب في القرن الرابع الميلادي. وإن كان يرى أن هذه التسمية في ذلك القرن اقتصرت على نصارى السريان، في حين أن الرومان كانوا يطلقون على العرب اسم السراكين^(٧).

وهذه معلومات تثير الفضول حول ديناميكية وقوة تأثير هذه القبيلة على الشعوب المجاورة في القرون الميلادية الأولى، ولاسيما تلك التي في الجوار، سواء الدول العظمى مثل: الفرس، والرومان، أو الشعوب الأخرى من سريان وأرمن ويهود وغيرهم.



نقوش ثمودية ورسوم حيوانية في جبة

نقش ورسم بشري وحيواني وغيره^(١). ويمتد تاريخ هذه الكتابات والنقوش المكتشفة إلى فترات تاريخية مختلفة. فالكتابات الثمودية الموجودة في المنطقة تصنف بالثمودية المتوسطة والمتأخرة وتؤرخ بالقرون الأولى قبل الميلاد والخمسة الأولى بعد الميلاد^(٢). ويبدو من خلال هذه التواريخ المعطاة أن قبائل عربية تستخدم الخط الثمودي كانت تقطن منطقة حائل قبل مجيء قبيلة طيئ^(٣) واستيطانها الجليلين؛ ذلك أننا لا نجد أي إشارة في مجموعة النقوش الثمودية المنشورة لقبيلة طيئ، أو لإلهها فلس^(٤).

وقد تركت قبيلة طيئ أثراً مهماً في الشعوب التي عاصرتها قبل الإسلام جعل اسمها يصبح علماً على جنس العرب عموماً لدى عدد من هذه الشعوب مثل: العبرانيين، والسريان، والفرس، فكانت تسميات العرب مشتقة - عند الأمم الأخرى - من اسم قبيلة طيئ التي طغت شهرتها في القرون الميلادية الأولى على بقية القبائل

(١) كباوي، عبدالرحمن، وآخرون، حصر وتسجيل الرسوم والنقوش الصخرية، أطلال، مرجع سابق، ج١، ص٧٥.

(٢) سليمان الذنيب، نقوش عربية شمالية من جبل أم سلمان بمحافظة حائل، المملكة العربية السعودية، مجلة جامعة الملك سعود، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، ع١، (الرياض: ١٩٩٩ م)، ص٤.

(٣) سليمان الذنيب، نقوش ثمودية من المملكة العربية السعودية، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٩ م).

(٤) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، (بيروت: دار العلم للملايين، بغداد: مكتبة النهضة، ١٩٧٨ م، ١٩٨٠ م)، ج١، ص٣١، ٣٢، ٦٦١.

(٥) Shahid, I. Rome and the Arabs. Washington. D.C. : Sumbarton Oaks, 1984. p. 184.

(٦) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، ج٢، ص٥٤٩؛ Ibid Shahid, Rome and the Arabs: pp. 126-7.

(٧) Hoyland, Robert. G. Arabia and the Arabs: from the Bronze Age to the coming of Islam. 3rd ed., London & New York: Routledge, 2003. p. 235.

ثالثاً - شخصيات وأحداث في تاريخ المنطقة:

أ - حاتم الطائي:

يعد حاتم مفخرة طَيِّئٍ ومن أذاع صيتها وأعلى من قدرها؛ فصارت طَيِّئٌ والجبلان وحائل عنواناً للكرم والأخلاق الحميدة التي تقرب من المثالية، وهي تسلط الضوء على المبادئ الأساسية لعرب الجزيرة وآدابهم وأخلاقهم.

وهو حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي بن أخزم بن أبي أخزم بن ربيعة بن جرويل بن ثعل بن عمرو بن الغوث واسمه جلهمة بن طَيِّئٍ بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، أبو سفانة الطائي الجواد^(٤). وقد عاش قريباً من الهجرة النبوية، ويعتقد أنه توفي عام ٤٦ ق. هـ. وقد أسلم ابنه عدي وابنته سفانة، وكان لهما مع رسول الله ﷺ قصة. فمن مجمل ما قيل في خلقه أنه «كان من شعراء العرب، جواداً يشبه شعره جوده ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظفراً إذا قاتل غلب، وإذا غنم أنهب، وإذا سئل وهب، وإذا ضرب بالقداح فاز، وإذا سابق سبق، وإذا أسر أطلق، وكان يقسم بالله ألا يقتل واحداً أمه. وكان إذا أهل الشهر الأصم الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية ينحرف في كل يوم عشراً من الإبل فأطعم الناس واجتمعوا إليه، فكان ممن يأتيه من الشعراء: الحطّئة وبشر بن أبي خازم^(٥)، يقول مخاطباً ابنه: «أي بني، إني أعهد من نفسي ثلاث خصال: والله ما خاتلت جارة لربيبة قط، ولا أوتمنت

ونرى من المعلومات التي يمكن جمعها من كتب الأدب والتراث العربية أن طَيِّئٌ قامت بأدوار متعددة منها السياسي ومنها الثقافي. ويبرز الدور السياسي في عدم الخضوع للقوى المحيطة بها من مناذرة أو غساسنة أو حميريين، على الرغم من أنهم كانوا دائمي التعرض للاعتداء من هؤلاء الملوك الذين يحاولون السيطرة على الطرق المتجهة من بلادهم إلى وسط الجزيرة وجنوبها^(١). ويتجلى دورهم السياسي أكثر ما يتجلى في إعطائهم الجوار لامرئ القيس الكندي على ما في ذلك من تحدٍ لقوى الجوار الطامعة في دمه، أو من خلال الدور الذي اشتهر به أحد أفرادها؛ وهو حاتم الطائي الذي صبغ القبيلة بأجمعها بسمات الكرم والوجود والوفاء. أو من خلال تولي أحد أشرافها حكم الحيرة منافساً للمناذرة في عقر دارهم.

فقد تولى سيد طَيِّئٍ إياس بن قبيصة من بني سننيس أو سبأ بن عمرو بن الغوث بن طَيِّئٍ حكم الحيرة حين ملكه كسرى عليها بعد قتل الفرس النعمان بن المنذر، وأهم ما دار في عهده وقعة ذي قار ٦٠٤ أو ٦١٠ م التي انتصر فيها العرب لأول مرة على الفرس^(٢)، وتذكر بعض الروايات التي تجعله آخر ملوك الحيرة أنه هو الذي صالح خالد بن الوليد عن الحيرة على الجزية ١٢ هـ / ٦٣٣ م^(٣)، ما يثبت مدى نفوذ طَيِّئٍ في القرنين الخامس والسادس الميلاديين الذي امتد من وسط الجزيرة إلى شمالها الشرقي تاركاً أثراً جوهرياً في قبائل العراق وشعوبها والدول العظمى المجاورة، حتى جعلوا من اسمهم علماً على جميع العرب.

(١) Musil, A. Northern Nagd. New York: The American Geographical Society. 1928., p. 83.

(٢) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، ج٣، ٢٩١.

(٣) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مرجع سابق، ج٥، ٥٠٠؛ ج٦، ١٢.

(٤) ابن عساکر، عبدالله بن الحسين. تاريخ مدينة دمشق، مرجع سابق، ج١١، ٣٥٧.

(٥) علي بن الحسين الأصفهاني، كتاب الأغاني، (بيروت: دار الفكر)، ج١٧، ٣٦٦.



على أمانة إلا أدبتها، ولا أوتي أحد من قبلي بسوء». ويصفه ابنه عدي بأنه كان رجلاً طويل الصمت، وكان يقول: «إذا كان الشيء يكفيك الترك فاتركه»^(١).

وتتواتر قصص حاتم مع الكرم الذي أصبح مرادفاً لاسمه فيقال «الكرم الحاتمي» لمن اشتهر بالكرم. وارتبط الكرم به منذ صغره، فيذكر الأصفهاني أنه كان في صغره لا يأكل إن لم يجد من يأكل معه وإلا أهلك طعامه^(٢). ومن الواضح وفق الروايات أن هذه الخصلة لم يرثها عن أهل أبيه، فقد غضب عليه جده سعد بن الحشرج الذي تربى في حجره بعد وفاة والده عندما ذبح كل إبله التي أمره أن يرهاها ليقدمها ضيافة لثلاثة مسافرين من الشعراء، فتركه ورحل عنه^(٣). وعلى الأرجح أنه ورث ذلك عن أمه التي عرفت بكرم دعا إخوتها للحجر عليها.

وأم حاتم هي عتبة أو عنترة أو عنبه بنت عفيف بن عمرو بن امرئ القيس، وفضلاً عن كونها شاعرة أيضاً، فقد كانت لا تمسك شيئاً سخاءً وجوداً، وكان إخوتها يمنعونها فتأبى، وكانت امرأة موسرة وسخية فحبسوها في بيت سنة يطعمونها قوتها لعلها تكف عما تصنع، ثم أخرجوها بعد سنة، وقد ظنوا أنها قد تركت ذلك الخلق، فدفعوا إليها صرمة^(٤) من مالها وإبلها، وقالوا: استمتعي بها، فأتتها امرأة من هوازن تزورها، فسألتهما، فقالت: دونك هذه الصرمة فقد والله مسني من الجوع ما آليت ألا أمنع سائلاً، ثم أنشأت تقول:

لعمري لقدما عضني الجوع عضه

فأليت ألا أمنع الدهر جائعاً

فقولاً لهذا اللائمي اليوم أعفني

وان أنت لم تفعل فعض الأصابعا

فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم
سوى عدلكم أو عدل من كان مانعاً
ومماذا ترون اليوم إلا طبيعة
فكيف بتركي يا ابن أمي الطبايعا^(٥)

ولا تمدنا المصادر بمعلومات أخرى عن أم حاتم إلا هذه الرواية التي ترد في أكثر من موضع بشكل مختصر أو مفصل، ولعل الكشف عن مصادر تراثية جديدة يطلعوننا على المزيد حول شخصية هذه المرأة ومدى تأثيرها في ابنها. وكما نرى فإن هذه الرواية لا تشير إلى حالتها الزوجية أو العمرية، فلا ندري هل كان ذلك قبل زواجها أم بعدها؟ وهل كان حاتم صغيراً أم كبيراً؟ وإن كان كذلك فكيف لا يكون له موقف مدافع عن أمه أمام أخواله؟

وعرف حاتم بأبي سفانة، فقد كانت أكبر بناته وأبنائه، وإخوتها عدي وعبدالله وأمهم نوار، وقيل بل إن عدياً أمه ماوية. وكانت سفانة على عهد والدها وجدتها لأبيها، سخية كريمة. قال ابن الكلبي: «كانت سفانة بنت حاتم من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها الصرمة بعد الصرمة»^(٦) من إبله فتتهبها وتعطيها الناس، فقال لها حاتم: يا بنية إن القرينين إذا اجتمعا في المال أتلناه، فإما أن أعطي وتمسكي أو أمسك وتعطي فإنه لا يبقى على هذا شيء^(٧). وكانت ضمن سبايا طيئ في فتح الجبلين. وقد وردت قصة أسرها ولقائها الرسول ﷺ، وأكثر من صيغة وهي تجمع على انبهار الصحابة بجمالها وحسنها وكيف أراد علي بن أبي طالب أن يطلبها إلى رسول الله ﷺ ليجعلها في فيئه، فلما تكلمت أنست فصاحتها جمالها إذ قالت: «يا محمد إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب، فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري

(١) عبدالله بن مسلم ابن قتيبة، الشعر والشعراء، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦م)، ٤٥.

(٢) الأصفهاني، علي بن الحسين. كتاب الأغاني، مرجع سابق، ج١٧، ٣٦٧.

(٣) المرجع السابق، ج١٧، ٣٦٨.

(٤) الصرمة قطعة من الإبل.

(٥) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم. الشعر والشعراء، مرجع سابق، ٤٥؛ الأصفهاني، علي بن الحسين. كتاب الأغاني، مرجع سابق، ج١٧، ٣٦٥؛ ابن عساکر، عبدالله بن الحسين. تاريخ مدينة دمشق، مرجع سابق، ج١١، ٣٧٠؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، ج٢، ٢١٦.

(٦) القطعة بعد القطعة.

(٧) الأصفهاني، علي بن الحسين. كتاب الأغاني، مرجع سابق، ج١٧، ٣٦٦.



الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، وأنا ابنة حاتم طيئ (سفانة)». فقال النبي ﷺ: «يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مؤمناً لترحمنا عليه، خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق». ثم قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق». وأسلمت فحسناً إسلامها^(١). وكذلك أسلم عدي بن حاتم وحسن إسلامه أيضاً^(٢).

وقد تزوج حاتم من نوار وله معها كثير من القصاص حول كرمه ومعاناتها معه، وتزوج بعد وفاتها بماوية. ونجد أن عدداً من القصص تتداخل بين زوجتيه، وكأن الرواة لم يميزوا بينهما. وقال في كل منهما شعراً جميلاً. هذا ويبدو أن نوار قد تزوجت من عركز بن حليس الطائي وأنجبت منه أبناء منهم ملحان، ومن الأرجح أنها تزوجت منه قبل حاتم^(٣).

وفي زواجه من ماوية قصة تتناسب مع نبهه وكرمه، وإن كان هناك خلاف حول نسب ماوية، ففي رواية أنها ماوية بنت حجر بن النعمان الغسانية، وفي أخرى أنها ماوية بنت عفرز، وليس هناك وضوح حول خلفية ماوية بنت عفرز سوى أنها كانت ملكة ما، أو حول هذا الخلاف في الاسمين. وتختلف الروايتان حول سكنها بين دمشق والحيرة عندما قدم عليها حاتم لخطبتها، وأنها في القصتين أخضعت حاتمًا وصحبه الذين - كما يبدو - تقدموا جميعاً لخطبتها، إلى اختبارات في الخلق والكرم، وهو أسلوب شائع في الأدب العربي قبل الإسلام وبعده، ولا سيما عندما تكون المرأة صاحبة شأن ويطلب ودها كثيرون.

الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، وأنا ابنة حاتم طيئ (سفانة)». فقال النبي ﷺ: «يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مؤمناً لترحمنا عليه، خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق». ثم قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق». وأسلمت فحسناً إسلامها^(١). وكذلك أسلم عدي بن حاتم وحسن إسلامه أيضاً^(٢).

وقد تزوج حاتم من نوار وله معها كثير من القصاص حول كرمه ومعاناتها معه، وتزوج بعد وفاتها بماوية. ونجد أن عدداً من القصص تتداخل بين زوجتيه، وكأن الرواة لم يميزوا بينهما. وقال في كل منهما شعراً جميلاً. هذا ويبدو أن نوار قد تزوجت من عركز بن حليس الطائي وأنجبت منه أبناء منهم ملحان، ومن الأرجح أنها تزوجت منه قبل حاتم^(٣).

وفي زواجه من ماوية قصة تتناسب مع نبهه وكرمه، وإن كان هناك خلاف حول نسب ماوية، ففي رواية أنها ماوية بنت حجر بن النعمان الغسانية، وفي أخرى أنها ماوية بنت عفرز، وليس هناك وضوح حول خلفية ماوية بنت عفرز سوى أنها كانت ملكة ما، أو حول هذا الخلاف في الاسمين. وتختلف الروايتان حول سكنها بين دمشق والحيرة عندما قدم عليها حاتم لخطبتها، وأنها في القصتين أخضعت حاتمًا وصحبه الذين - كما يبدو - تقدموا جميعاً لخطبتها، إلى اختبارات في الخلق والكرم، وهو أسلوب شائع في الأدب العربي قبل الإسلام وبعده، ولا سيما عندما تكون المرأة صاحبة شأن ويطلب ودها كثيرون.

وفي رواية تقدم حاتم لماوية بنت حجر الغسانية، وتعرف بأنها عمه أبي شمر بن

هَلَا سَأَلْتِ - هَدَاكَ اللهُ - مَا حَسْبِي
عِنْدَ الشَّتَاءِ إِذَا مَا هَبَّتِ الرِّيحُ
وَرَدَّ جَارِزُهُمْ حَرْفًا مُصْرَمَةً
فِي الرَّأْسِ مِنْهَا وَفِي الْأَنْقَاءِ تَمْلِيحُ
إِذَا اللَّقَاحُ عَدَّتْ مُلْقَى أَصْرَتَهَا
وَلَا كَرِيمٍ مِنَ الْوُلْدَانِ مَصْبُوحُ

(١) المرجع السابق، ج١٧، ٣٦٥؛ ابن عساكر، عبدالله بن الحسين. تاريخ مدينة دمشق، مرجع سابق، ج١١، ٣٥٨، ٣٥٩، ج٦٩، ١٩٩.

(٢) الأصفهاني، علي بن الحسين. كتاب الأغاني، مرجع سابق، ج١٧، ٣٨٤.

(٣) ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، ج٢، ٢١٣.

(٤) ابن عساكر، عبدالله بن الحسين. تاريخ مدينة دمشق، مرجع سابق، ج٩، ٤٠٧، ٤٠٨؛ ج١١، ٣٥٧.

رواية العسكري بأنها ملكة لا تتزوج إلا من أردت، في إشارة ربما إلى عدد من الزوجات لها. فيذكر أنه جاء يخطبها هو وزيد الخيل وأوس بن حارثة بن لأم، فقالت لهم: ليصف كل إنسان منكم نفسه، فقال زيد: أنا زيد الخيل، تفخر بي طيئ على العرب، ولي مرياع كل غنيمة، وغزوت ثلاثاً وسبعين غزوة، لم تتكل فيها طائفة ولدأ، ولم تتجع فيها بحليل، ولم أخب في شيء منها، ثم إنني لم أرد سائلاً، ولم ألج جاهلاً، ولم أنطق باطلاً، ولم أبت على وغم. وقال أوس: أول ما أخذت من لحيتي قامت سعدى فالتقطت كل شعرة سقطت منها، فأعتقت بها نسمة من معد. فقال حاتم: أنهبت مالي ثلاث عشرة مرة، وأحلت لي طيئ أموالها أخذ ما شئت، وأدع ما شئت. قالت: هاتوا بذلك شعراً، فقال كل واحد منهم قصيدة يمدح بها نفسه، فقالت: أما أنت يا زيد فرجل قد وترت العرب، فمقام الحرة معك قليل، وأما أنت يا أوس فرجل ذو ضرائر، والدخول عليهن شديد، وأما أنت يا حاتم فرجل قريب المنتسب، كريم المنصب، وقد رضيتك. ويتابع الأصفهاني في سيرة حاتم وماوية فيذكر أنها غيرت اتجاه مدخل خيمتها بعد فترة من الزمن وضيقتها من إسراف حاتم دلالة تطليقها إياه، وعلى الرغم من ذلك استمرت تعجب بكرمه وحسن خلقه^(١). ولا ندري إن كانت رجعت إليه أو تزوجت غيره. لكن ليست هناك إشارة إلى أنه تزوج بامرأة ثالثة. وعقب حاتم من ولد عبد الله، وليس لعدي عقب من الذكور^(٢). ويبدو أن حاتم كان لا يستنكف أن يفتد على الملوك طلباً في العطفية. فتذكر الروايات أنه وفد على النعمان بن المنذر ملك الحيرة ٥٨٠ - ٦٠٢ م، ولا سيما أن الأخير كان متزوجاً من طيئ وعلى عادة إكرام قبيلة زوجته^(٣).

ثم استنشدت النابغة فأنشدها:

هَلَا سَأَلْتِ بَنِي دُبْيَانَ مَا حَسَبِي
إِذَا الدُّخَانُ تَغَشَّى الْأَشْمَطَ الْبَرَمَا
وَهَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ ذِي أُرْلٍ
تُرْجِي مَعَ الصُّبْحِ مِنْ صُرَادِهَا صِرَمًا
إِنِّي أُتَمِّمُ أَيْسَارِي وَأَمْنَحُهُمْ
مَتْنِي الْأَيَادِي وَأَكْسُو الْجَفْنَ الْأُدْمَا
ثم استنشدت حاتمًا فأنشدها:

أَمَاوِي إِنْ الْمَالَ عَادٍ وَرَائِحُ
وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذُّكُرُ
أَمَاوِي إِنِّي لَا أَقُولُ لِسَائِلٍ
إِذَا جَاءَ يَوْمًا حَلٌّ فِي مَالِنَا نَذُرُ
أَمَاوِي إِمَّا مَانِعٌ فَمُبِينٌ
وَإِمَّا عَطَاءٌ لَا يُنْهِنُهُ الرَّجْرُ
أَمَاوِي مَا يُغْنِي الثَّرَاءَ عَنِ الْفَتَى
إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ
أَمَاوِي إِنْ يُصْبِحُ صَدَايَ بِقَفْرَةٍ
مِنَ الْأَرْضِ لَا مَاءَ لَدَيَّ وَلَا حَمْرُ
تَرِي أَنْ مَا أَنْفَقْتُ لِمِ يَكُ صَرْتِي
وَأَنْ يَدِي مِمَّا بَخَلْتُ بِهِ صِفْرُ
وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ لَوْ أَنَّ حَاتِمًا

أَرَادَ ثَرَاءَ الْمَالِ كَانَ لَهُ وَفْرُ
فلما فرغ من إنشاده، دعت ماوية بالغداء فقدم إلى كل رجل ما كان أطعمها، فنكس النبييتي والنابعة رأسيهما، فلما رأى حاتم ذلك رمى بالذي قدم إليهما، وأطعمهما مما قدم إليه، فتسللا لوأذا، فلما خرج النبييتي والنابعة قالت لحاتم: «خل سبيل امرأتك» فأبى، فزودته وردته، فلما انصرف دعت نفسه إليها. فلما ماتت امرأته خطبها فتزوجته فولدت عدياً^(٤). وفي رواية ثالثة تنسب إلى ماوية بنت عفرز وتندور في الحيرة وتشبه في بنائها قصته مع ماوية الغسانية في دمشق. وتعرف ماوية في

(١) الأصفهاني، علي بن الحسين. كتاب الأغاني، مرجع سابق، ج١٧، ٣٨١ - ٨٤؛ الحسن بن عبد الله العسكري، جبهة الأمثال، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٨ هـ)، ٣٨.

(٢) الأصفهاني، علي بن الحسين. كتاب الأغاني، مرجع سابق، ج١٧، ٣٨٥.

(٣) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم. الشعر والشعراء، مرجع سابق، ٤٦.

(٤) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، ج٣، ٢٦٢، ٢٧١.

معولاً إلا عليك يا أبا سفانة. قال: أعجلهم. قالت: فهبيت إليه فقلت ماذا صنعت، فوالله لقد تضاعى أصيبتك من الجوع فما أصبت ما تغلهم به إلا بالنوم وتأتينا هذه الآن وأولادها؟ قال: اسكتي والله لأشبعنك وإياهم. وجعلت أقول: ومن أين؟ فوالله ما أعرف شيئاً. فأقبلت المرأة تحمل اثنتين ويمشي جانبها أربعة كأنها نعامة حولها رئالها (صغارها)، فقام إلى فرسه «حلاب»، فوجأ (طعن) لبتة بمدية، ثم قرح زنده ثم جمع حطباً ثم كشط عن جلده ودفع المدية إلى المرأة، ثم قال: أبغي (نادي) صبيانك فبغيتهم، فاجتمعنا جميعنا على اللحم. فقال: سوأة.. أتأكلون دون أهل الحي؟ قالت: فجعل يأتي بيتاً بيتاً ويقول: يا هؤلاء هبوا وعليكم النار. قالت: فاجتمعوا والتفح بثوبه ثم اضطلع ناحية ينظر إلينا، ألا والله ما ذاق مزعة (شيئاً) وأنه لأحوجهم إليه ثم اضطلعنا وما على الأرض منه إلا عظم أو حافر، فأنشأ حاتم يقول:

مهلا نوار أقلي اللوم والعدلا

ولا تقولي لشيء فات ما فعلا
ولا تقولي لمال كنت مهلكه
مهلا وإن كنت أعطي الجن والخبال
يرى البخيل سبيل المال واحدة
إن الجواد يرى في ماله سبلاً
لا تغدليني في مال وصلت به

رحماً وخير سبيل المال ما وصلاً^(١)
وهناك رواية لا تنسب إلى نوار أو ماوية
بالاسم وإنما إلى «امرأة حاتم»، وتدور حول
محاولتها أن تقنعه بأن يأكلا وحدهما دون
دعوة القبيلة ولكنها لم تفلح في ذلك، في دلالة
على تدمرها من حدة كرمه التي لم تترك
لهما خصوصية ولم تغن أطفالهما من الجوع.

فأكرمه وأدناه ثم زوده عند انصرافه حملين
ذهباً وورقاً، غير ما أعطاه من طرائف بلده،
فرحل، فلما أشرف على أهله تلقته أعراب
طبيئ فقالت: يا حاتم أنت أتيت من عند الملك
بالغنى وأتينا من عند أهالينا بالفقر، فقال
حاتم: هلموا فخذوا ما بين يدي، فتوزعوه،
فوثب القوم إلى ما بين يديه من حباء النعمان
فاقتسموه، فخرجت إلى حاتم طريفة جاريته
فقالت له: اتق الله وأبق على نفسك، فما يدع
هؤلاء ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً،
فرد عليها شعراً يظهر أنه راض بما يجيء
منهم^(١).

ومن قصص كرمه التي أخبرت عنها زوجها
نوار قصة ذبح الفرس التي ترد في المصادر
الإخبارية بأكثر من صورة، وعدت من أعجب
حكايات كرمه، فتروي نوار قائلة:

«أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض فاغبر
لها أفق السماء وراحت الإبل حدباء حدابير،
وضنت المراضع على أولادها فما تبض بقطرة،
وجلقت السنة المال، وأيقنا أنها الهلاك، فوالله
إني لفي ليلة صنبرة بعيدة الطرفين إذ تضاعى
(بكوا من الجوع) أصيبتنا (صبياننا) عبد الله
وعدي وسفانة، فقام حاتم إلى الصبيين،
وقمت إلى الصبية، فوالله ما سكتوا إلا بعد
هدأة من الليل». كما نرى فإن هذه الرواية
تجعل عدياً ابناً لنوار، قالت: «ثم افترشنا
قطيفة لنا شامية ذات خمل فأنمنا الأصبية
عليها ونمت أنا وهو في حجرة، فلما تهورت
النجوم، وادلهم الليل، وهدأت الأصوات،
وسكنت الرجل، إذ جانب البيت قد رفع فقال:
من هذا؟ قال: جارتك فلانة. قال: ويلك
ما لك؟ قالت: أتيتك من عند أصبية يتعاونون
عواء الذئاب من الجوع فما وجدت على أحد

(١) ابن عساکر، عبدالله بن الحسين.
تاريخ مدينة دمشق، مرجع سابق،
ج١١، ٣٦٧.

(٢) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم. الشعر
والشعراء، مرجع سابق، ٤٥؛ ابن
عساکر، عبدالله بن الحسين. تاريخ
مدينة دمشق، مرجع سابق، ج١١، ٦٥ -
٣٦٣؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر.
البدایة والنهاية، مرجع سابق، ج٢،
٢١٣.

أتيت بصحبك تبغي القرى
لدى حفرة صدحت هامها
أتبغي لي الذنب عند المبيت
وحولك طيء وأنعامها
وإنا لنشبع أضيافنا

وتأتي المطي فنعامها»
قال وإذا ناقة صاحب القول تكوس عقيراً
(أي تقع متكومة قريبة من النفوق)، فتحروها
وقاموا يشوون ويأكلون، وقالوا: والله لقد
أضافنا حاتم حياً وميتاً. قال: وأصبح القوم
وأردفوا صاحبهم وساروا، فإذا عدي بن حاتم
ومعه جملٌ أسود قد قرنه ببعيره، فقال: أيكم
أبو الخيبري؟ قال: أنا. قال: إن حاتمًا جاءني
في المنام فذكر لي شتمك إياه، وقد قال في
ذلك أبياتا وأنه استضافك وأصحابك راحلتك
وأمرني بدفع جملٍ مكانها إليك فخذ، ودفعه
إليه^(٢).

ويعتقد أن حاتمًا دفن في قرية توارن وقول
آخر أنه في «قرية» من قرى حائل. ويقال
إن توارن التي تكثر فيها القصور الأثرية
القديمة^(٣) قوم حاتم الطائي ومراتع صباه
وبها قصر ينسب إليه ويذكر أن قبره فيها مع
أن المتواتر أن قبره في «القرية» أسفل حائل،
ووفق ياقوت فإن قبر حاتم طيئ في جبل يدعى
عوارض^(٤)، وهو قريب من توارن إلى الشمال
منها.

ولا شك في أن كرم حاتم قد جلب عليه
غضب زوجته. وقد تساءل المؤرخون والمحللون
فيما إذا كان هذا من الكرم أم من الرغبة في
حسن الذكر أو في الشهرة أو كان إسرافاً كما
راه كثير من قومه آنذاك.

ويبدو أن الكرم بقي شيمة من شيم طيئ بعد
وفاة حاتم، فيذكر عن الأصمعي أنه قال: سرت



قبر حاتم الطائي في قرية توارن

فوافقها أمرها وإذ به عندما جهز الطعام يرفع
ستور الخيمة ويقدم الطعام ويدعو الناس فأكل
وأكلوا. فقالت: ما أتممت لي ما قلت. فأجابها:
فإني لا تطاوعني نفسي ونفسي أكرم علي من
أن تتني علي هذا وقد سبق لي السخاء^(١).

وقد اشتهر حاتم في كرمه حتى بلغ مبلغ
الخيال والقصص الأسطورية، فهذه إحدى
القصص التي نعتقد أن خيال الرواة قد
نسجها، ترتبط بإكرام حاتم لضيوفه بعد
مماته وهم عند قبره، فيذكر أنه مر نضر من
عبد القيس بقبره فنزلوا قريباً منه فقام إليه
أحدهم يقال له أبو الخيبري فجعل يركض
قبره برجله (يرفس) ويقول: «يا أبا جعد أقرنا
(أي أكرمنا وضيئنا)». فقال له بعض أصحابه:
«ما تخاطب من رمة وقد بليت». وأجنهم الليل
فناموا. فقام صاحب القول فرعاً يقول: «يا
قوم عليكم بمطليكم فإن حاتمًا أتاني في النوم
وأنشدني شعراً وقد حفظته، يقول:

أبا الخيبري وأنت امرؤ

ظلوم العشيرة شتامها

(١) ابن عساکر، عبدالله بن الحسين،
تاريخ مدينة دمشق، مرجع سابق،
ج١، ١١٦، ٣٦٦؛ ابن كثير، إسماعيل بن
عمر، البداية والنهاية، مرجع سابق،
ج٢، ٢١٤.

(٢) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم،
الشعر والشعراء، مرجع سابق، ٤٦؛
الأصمعي، علي بن الحسين، كتاب
الأغاني، مرجع سابق، ج١٧، ٣٨٨؛
ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية
والنهاية، مرجع سابق، ج٢، ٢١٧.

(٣) العريفي، همد العلي، حائل، مرجع
سابق، ٤١.

(٤) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، مرجع
سابق، ج٤، ١٦٤.

كانت ذات رأي يُعتمد به وخبرة في النقد وفي تقييمها للشعر حتى يُطلب إليها التحكيم، وقد قدمت توضيحاً بليغاً لسبب هذا التفضيل مبنياً على بناء الشعر واختيار الألفاظ الذي جعلها تقدم علقمة على زوجها.

ومن غير المعروف مدة إقامة امرئ القيس في طَيْئٍ، لكن الأمر تطور فيها ووقعت حرب لأجله اضطرته إلى الخروج، فأخذ يتنقل طلباً للجوار حتى نُصح بالسموئيل بن عادياء سيد تيماء^(١)، فسار إليه ليبدأ فصل آخر من تاريخ امرئ القيس.

رابعاً - المظاهر الحضارية:

أ - الديانة:

كشفت قراءة بعض النقوش التمودية المكتشفة في حائل، عن أن قبائل البادية المعروفة اصطلاحاً بالتمودية كانت تعبد عدداً من الآلهة يتصدرها الإله رضو^(٧)، يليه الإله غمد^(٨)، وهناك عدد آخر من الآلهة الذين تظهر أسماءهم ضمن أسماء الأعلام وعلى رأسهم الإله إل^(٩)، ثم الربية اللات^(١٠). ويلاحظ ورود اسم الإله يثع أكثر من أربع مرات ضمن اسم وائل يثع^(١١) وهو الاسم الذي قرنه وينيت بيسوع المسيح الذي عده دلالة على انتشار العقيدة النصرانية بين عرب الجزيرة تحت هذا الاسم^(١٢)، ولاسيما أن النصرانية انتشرت بعض الشيء في طَيْئٍ وقد اعتنقها بعض منهم وقت ظهور الإسلام^(١٣). ولا شك في أن قراءة المتبقي من النقوش التي تربو على الآلاف^(١٤) سوف تفتح باباً أوسع لتصوير الحياة الدينية والاجتماعية للقبائل العربية التي قطنت منطقة حائل قبل الإسلام.

في تطوافي في العرب بجبلي طَيْئٍ فوصلت إلى قوم منهم يحتلبون اللبن ثم يصيحون: الضيف الضيف، إن جاء من يضيفونه وإلا أراقوه فلا يذوقون منه شيئاً دون الضيف إلا أن يجهدهم الجوع^(١).

ب - امرؤ القيس:

وقد ارتبطت منطقة حائل كذلك بشخصية تاريخية وأدبية مهمة هي امرؤ القيس الكندي. فقد لجأ إلى طَيْئٍ لنجدته من ملوك الحيرة، وأقام عندهم في وادي حائل ومدينته قُرَيْة ومدحهم في عدد من القصائد^(٢). وصلة امرئ القيس بطَيْئٍ متعددة الأوجه، فقبل مقتل والده وبعد أن أنف منه ومن قوله الشعر وطرده من القبيلة كان يتنقل مع ندمائه في أنحاء الجزيرة وعدد منهم من طَيْئٍ^(٣). وبعد مقتل والده على يد بني أسد وتكريسه حياته بعد ذلك للأخذ بثأره منهم، أخذ يتقلب بين القبائل يرجو جوارهم ومساعدتهم في حربه ضد بني أسد، حتى نزل ببني نبهان من طَيْئٍ الذين أجاروه ومعه ابنته هند بنت امرئ القيس ويزيد بن معاوية بن الحارث، وأدرع بني أكل المرار التي يتوارثونها ملكاً عن ملك (الفضفاضة والضافية والمحصنة والخربق وأم الذبول) والسلاح ومال كان بقي معه^(٤). ثم ما لبث أن تزوج بامرأة من طَيْئٍ تعرف بأم جندب وبقيت معه زمناً حتى طلب منها أن تحكم على شعره وشاعر منافس له يدعى علقمة الفحل بن عبدة التميمي، فقال كل واحد منهما لصاحبه أنا أشعر منك فتحاكما إليها. فلما حكمت لعلقمة طلقها وتزوجها علقمة^(٥). وهو موقف يشير إلى أن امرأته - على الرغم من عدم توافر معلومات عنها -

- (١) إسماعيل بن القاسم القالي، *الأمالي في لغة العرب*، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨ م)، ج٢، ١١٠.
- (٢) يسجل امرؤ القيس أقدم ذكر لحائل في النصوص المكتوبة. وقد ذكرت أبياتاه المذكورة في مقدمة هذا البحث.
- (٣) الأصفهاني، علي بن الحسين. كتاب الأغاني، مرجع سابق، ج٩، ١٠٤.
- (٤) المرجع السابق، ج٩، ١١٢، ١١٣.
- (٥) المرجع السابق، ج١١، ٢٠٨.
- (٦) المرجع السابق، ج٩، ١١٥.
- (٧) سليمان، الذيب، «نقوش عربية شمالية من منطقة حائل»، مجلة كلية الأثار، مرجع سابق، ٧٤، ٩٧.
- (٨) النقوش رقم ٢٨، ٢٦؛ الذيب سليمان، نقوش تمودية من المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، النقوش رقم ١٨، ٩.
- (٩) المرجع السابق، النقوش رقم ٣٥، ٣٣، ٦٤، ٣٦.
- (١٠) المرجع السابق، النقوش رقم ٥، ٤٠، ٥٩، ٦٨؛ النقوش رقم ١٥، ٦.
- (١١) المرجع السابق، النقوش رقم ٤، ١١، النقوش رقم ١٩.
- (١٢) المرجع السابق، النقوش رقم ٦٥، النقوش رقم ٢٨، ٢٧، ٢١.
- (١٣) Winnett, F.V. 'References to Jesus in Pre-Islamic Arabic Inscriptions'. *Muslim World*. 31 1941. pp. 341-353
- (١٤) المبارك بن محمد الجزري، *النهاية في غريب الأثر*، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطنجي، (بيروت: المكتبة العلمية، ١٣٩٩ هـ)، ج٥، ١٥٠.
- (١٥) كباوي، عبدالرحمن، وآخرون، «حصر وتسجيل الرسوم والنقوش الصخرية»، أطلال، مرجع سابق، ج١١، ٧٥.

الأصنام وتَصَرَّ. فلم يزل متنصِّراً حتى جاء الله بالإسلام فأسلم.

فتجرأ الناس بعد ذلك على السادن والصنم لكنه ظل يعبد، حتى ظهرت دعوة النبي عليه الصلاة والسلام فبعث إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة تسع للهجرة^(٥)، فهدمه وأخذ سيفين كان الحارث بن أبي شمر الغساني، ملك غسان، قلده إياهما يقال لهما مخدّمٌ ورسوب، فقدم بهما علي بن أبي طالب على النبي صلى الله عليه وسلم فتقلد أحدهما، ثم دفع الآخر إلى علي فهو سيفه الذي كان يتقلده^(٦).

كما كان لطَيْئٍ كاهنة مثل بقية قبائل العرب يتيمنون برأيها وتغزو معهم، اسمها رقاش، بل إنها كانت، وفق إحدى الروايات، تقود الجيش، وكانت وهي تغزو تغنم وتسبي مثلها مثل أي فرد من أفراد القبيلة الرجال. ويروي الإخباريون أنها غنمت شاباً من غزوة لها فدعته إلى نفسها فحملت منه، ولما جاءها قومها زمان الغزو قالت لهم «رويد الغزو ينمرق» أي لينتظر الغزو حتى ألد وقد ذهب هذا القول مثلاً. فتركوها حتى جاؤوها في المرة التالية فوجدوها نساء مرضعاً وقد ولدت غلاماً^(٧). وتظهر لنا القصة المكانة التي كانت تتحلّى بها كاهنات العرب.

ومن الخصائص الدينية التي كانت تميز طَيْئٍ عن غيرهم من العرب، أنهم كانوا لا يعترفون بالإنساء، أي أنهم كانوا يحاربون في الأشهر الحرم ولا يلتزمون بحرمتها كما تفعل بقية العرب، وهم في ذلك مع خنعم، فعدوا محلين لدماء العرب في الأشهر الحرم، ثم أخذت العرب منهم موقفاً فأحلت دماء طَيْئٍ وخنعم في الأشهر الحرم لمعاملتهم بالمثل^(٨).

أما طَيْئٍ فقد كان معبودها صنماً بين أجا وسلمى يدعى الفلّس يجعلونه في كل دار لهم يعبدونه، وإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به^(١)، ويذكر اليعقوبي أنه كان منصوباً في الحبس^(٢)، في حين يذكر ابن الكلبي أنه كان منصوباً في وسط جبل أجا على شكل تمثال إنسان ذي أنف أحمر. وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ويعترون عنده عتائهم ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تُركت له ولم تُخضر حويته (أي ما صار في حوزته وحرمه يترك له). وكان سدنته بنو بولان، وبولان هو الذي بدأ عبادته فكان آخر من سدنه منهم رجل يقال له صيفي^(٣)، وكانوا يقسمون به فيقول أحد الشعراء فيه:

فأقسم بالعتائر حيث فلس

ومن نسك الأقيصرم العباد

لقد حزت الكهانة عن سطيح

وشق والمرفل من إياد^(٤)

وكان لكل قبيلة تلبية لصنمها في الحج، لكن لم ترد تلبية فلس.

وتروى قصة حول محاولة السادن المحافظة على مكانة فلس في آخر أيامه، وكيف أن أحد أشرف طَيْئٍ ويدعى مالك بن كلثوم طارد ناقة لامرأة جارة له من كلب بن عُليم، قد هربت منها حتى وجدها وقفت بفناء الفلس، فأدركها هناك وأراد استردادها لكن السادن لم يرض وَعَدَّ أن هذا رزقاً وصل إلى ربه الفلس ولا يجوز رده، لكن مالكاً لم يستجب وحل عقالها وسار بها إلى جارتها. وكان عدد من طَيْئٍ ينتظرون أن يحل به غضب الفلس ومن بينهم عدي بن حاتم، لكن لما مضت أيام ولم يصبه شيء، رفض عدي عبادته وعبادة

(١) ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، ج٢، ١٩١.

(٢) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٠ م)، ج١، ٢٥٥.

(٣) هشام بن محمد بن الكلبي، كتاب الأصنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، (القاهرة: دار القومية للطباعة والنشر، ١٩٢٤ م)، ٥٩ - ٦٢.

(٤) القائل، إسماعيل بن القاسم. الأمالي في لغة العرب، مرجع سابق، ج٢، ٢٩٤.

(٥) الجزري، المبارك بن محمد. النهاية في غريب الأثر، مرجع سابق، ج٣، ٤٧٠.

(٦) ابن الكلبي، هشام بن محمد. كتاب الأصنام، مرجع سابق، ٥٩ - ٦٢.

(٧) أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار المعرفة)، ج١، ٢٨٨.

(٨) عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي، سمط النجوم العوالي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨ م)، ج١، ٢٦٥.

بكونه غزا ٧٣ غزوة لم يقتل فيها أي طائي، كما كان كريماً حليماً صادقاً^(٥).

ومن مفاخر طيئ، خطيبهم وحكيمهم أكثم بن صيفي. فيقول في وصية كتب بها إلى طيئ يقول:

«أوصيكم بتقوى الله وصلته الرحم...،
وعليكم بالخيل فأكرموها فإنها حصون العرب،
ولا تضعوا رقاب الإبل في غير حقها فإن فيها
ثمن الكريمة ورقوء الدم، وبألبانها يتحف
الكبير ويغذى الصغير، ولو أن الإبل كلفت
الطحن لطحنت، ولن يهلك امرؤ عرف قدره،
والعدم عدم العقل لا عدم المال، ولرجل خير
من ألف رجل، ومن عتب على الدهر طالت
معتبته، ومن رضي بالقسم طابت معيشته،
وأفة الرأي الهوى، والعادة أملك، والحاجة مع

المحبة خير من البغض مع الغنى، والدنيا دول
فما كان لك أتاك على ضعفك وما كان عليك
لم تدفعه بقوتك، والحسد داء ليس له دواء،
والشماتة تعقب، ومن ير يوماً يره، قبل الرماء
تملاً الكنائن، الندامة مع السفاهة، دعامة
العقل الحلم، خير الأمور مغبة الصبر، بقاء
المودة عدل التعاهد، من يزر غباً يزدد حياً،
التغريب مفتاح البؤس، من التواني والعجز
نتجت الهلكة، لكل شيء ضراوة فضر لسانك
بالخير، عي الصمت أحسن من عي المنطق،
الحزم حفظ ما كلفت وترك ما كفت، كثير
التنصح يهجم على كثير الظنة، من ألحف
في المسألة ثقل، من سأل فوق قدره استحق
الحرمان، الرفق يمن والخرق شؤم، خير السخاء
ما وافق الحاجة، خير العفو ما كان بعد القدرة،
فهذه خمسة وثلاثون مثلاً في نظام واحد»^(٦).

ب- اللغة:

اعتاد اللغويون والنحويون في صدر الإسلام الرجوع إلى لغة طيئ على أنها من مصادر اللغة الفصحى. وليس من المؤكد إذا ما كان ذلك يعود إلى فصاحة تختص بها القبيلة، أم إلى غزارة أشعار حاتم الطائي التي كانت مجالاً واسعاً للاستشهاد، أو أن القرب الجغرافي لمنطقة حائل من الكوفة والبصرة مقر النحويين واستسهالهم الوصول إليها عوضاً عن الإيغال في الصحراء جنوباً هو السبب في ذلك. ويورد الميداني عدداً كبيراً من الأمثال التي تنسب إلى طيئ وكلامهم^(١).

ج- الطب:

يبدو أن بعض الناس من طيئ كانوا يمارسون التطبيب وخصوصاً نساءها، فتذكر كتب التاريخ أنه لما كان يوم القادسية طعن المغيرة بن شعبه في بطنه قال فجاء بامرأة من طيئ تخيط بطنه فجعلت تخيطه^(٢).

د- مفاخر طيئ:

وقال العلماء خرج من قبيلة طيئ ثلاثة كل واحد مجيد في بابه؛ حاتم الطائي في جوده، وداد بن نصير الطائي في زهده، وأبو تمام حبيب بن أوس في شعره^(٣). ومن مفاخر طيئ في مجال الفروسية قبل الإسلام وفي صدره زيد الخيل وهو ابن مهلهل بن يزيد بن منهب الطائي من المؤلفة قلوبهم. وقد وفد على رسول الله ﷺ، وأسلم وله صحبة وسماه النبي ﷺ زيد الخير ووهبه فدك^(٤). وتتباهى طيئ

(١) النيسابوري، أحمد بن محمد. مجمع الأمثال، مرجع سابق، ج١، ٦٨، ٢٢١.

(٢) ابن عساکر، عبدالله بن الحسين. تاريخ مدينة دمشق، مرجع سابق، ٥٤.

(٣) شمس الدين بن أحمد بن خلکان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت، دار الثقافة، د.ت)، ج٢، ١٤.

(٤) ابن عساکر، عبدالله بن الحسين. تاريخ مدينة دمشق، مرجع سابق، ج١٩، ٥٢٣.

(٥) العسكري، الحسن بن عبدالله. جمهرة الأمثال، مرجع سابق، ٣٨.

(٦) النيسابوري، أحمد بن محمد. مجمع الأمثال، مرجع سابق، ج٢، ١٨٢، ١٨٣.

